العنوان:	كتاب سيرة النبي للمستشرقة البريطانية كارين آرمسترونج
المصدر:	مجلة كلية دار العلوم
الناشر:	جامعة القاهرة - كلية دار العلوم
المؤلف الرئيسي:	آرمسترونغ، كارين
مؤلفين آخرين:	نصر، فاطمة، عنانى، محمد، سالم، عبدالرحمن أحمد(مترجم، عارض)
المجلد/العدد:	ع 23
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1998
الشهر:	يونيه / صفر
الصفحات:	211 - 243
رقم MD:	142980
نوع المحتوى:	عروض كتب
قواعد المعلومات:	AraBase
مواضيع:	التاريخ الإسلامي، الاستشراق، المستشرقون، السيرة النبوية، عرض و تحليل الكتب، المصادر التاريخية
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/142980

© 2024 المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو المنظومة.

للإستشهاد بهذا البحث قم بنسخ البيانات التالية حسب إسلوب الإستشهاد المطلوب:

إسلوب APA

آرمسترونغ، كارين، نصر، فاطمة، عنانى، محمد، و سالم، عبدالرحمن أحمد. (1998). كتاب سيرة النبي للمستشرقة البريطانية كارين آرمسترونج.مجلة كلية دار العلوم، ع 23، 211 - 243. مسترجع من http://search.mandumah.com/Record/142980

إسلوب MLA

آرمسترونغ، كارين، فاطمة نصر، محمد عنانى، و عبدالرحمن أحمد سالم. "كتاب سيرة النبي للمستشرقة البريطانية كارين آرمسترونج."مجلة كلية دار العلومع 23 (1998): 211 - 243. مسترجع من http://search.mandumah.com/Record/142980

© 2024 المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو المنظومة.

كتاب

سيرة النبى محمد

للمستشرقة البريطانية كارين آرمسترونج

ترجمة : الدكتورة فاطمة نصر والدكتور محمد عنانى

(عرض ودراسة)

د / عبد الرحمن أحمد سالم

- ١ -

رغم وفرة الكتب التى ألّفها المستشرقون عن النبى محمد ﷺ فإن الكتاب الذى نعرض له الآن يُعَدّ من بين الكتب القليلة التى تحاول أن تتبنى منهجًا موضوعيًا منصفًا حيال نبيّ الإسلام . على أن ذلك لا ينبغى أن يصل بنا إلى المدى الذى يجعلنا نتوقع من الباحث الغربى أن يعبر عن وجهة النظر الإسلامية تمامًا ويدافع عنها كما يدافع المسلم ؛ فهذا نوع من الغلو ينبغى لنا أن نبرأ منه . إن كل ما نتطلبه ممن يتصدى للبحث فى سيرة النبى ﷺ من المستشرقين أن يكون متجردًا فى دراسته فلا يحمله الغرض على أن يلوى أعناق الحقائق التاريخية وينتقى من الأحداث ما يراه محققًا لغايته ويسقط منها ما لا يراه كذلك . ولا بأس بعد ذلك أن ينتهى مثل هذا الباحث المنصف إلى رأى قد لا يتفق معه فيه الباحث المسلم ؛ لأن حلّ مثل هذا الخلاف يعتمد على الحوار الموضوعى الذى لا عسر فيه ولا التواء .

وكتاب « كارين آرمسترونج » عن « سيرة النبى محمد » ﷺ يقدم مثالًا لما ذكرناه الآن . فهذه الباحثة البريطانية فى تاريخ الأديان لاحظت ما يتعرض له الإسلام ورسوله في الغرب من عداء مستحكم ، ورأت مدى الترحيب المبالغ فيه الذى استقبل به الغرب فى أواخر الثمانينيات رواية حافلةً بالبذاءة والافتراء ضد محمد وصحابته وضد الإسلام بصفة عامة ، وهى رواية : آيات شيطانية Satanic verses

للكاتب البريطانى الجنسية الهندى الأصل سلمان رشدى الذى ينحدر من أسرة مسلمة ! ولم يكن هذا الاحتفاء الغريب بعمل لا وزن له فى ميزان العلم والنظر الصحيح إلا انعكاسًا لتراث عميق من الكراهية التى يضمرها الغرب للإسلام . وإذا كان الباحثون قادرين على استجلاء الحقيقة فإن الجماهير العريضة في الغرب تتلفت فلا تجد إلا ما يحيط بها من كتابات عن الإسلام أقل ما توصف به هو بعدها عن الموضوعية .

هذه الملابسات جعلت « كارين آرمسترونج » تُقْدِم على تأليف كتاب تتناول فيه سيرة النبى محمد ﷺ وما يتصل بها من التعريف بالإسلام وكتابه والظروف التى أحاطت بنشأته وألوان التحدى التى واجهها وأبرز الإنجازات التى حققها . ولم تقصد المؤلفة بكتابها أن يكون خطابًا للمتخصصين ، بل أرادت أن تخاطب به جماهير الغربيين ممن حجب عنهم التحامل المغرض كثيرًا من حقائق الإسلام . ومن هنا لم تجد ضرورة للدخول فى كثير من التفاصيل ، كما وجهت اهتمامًا خاصًا لمناقشة الادعاءات النمطية التى يتوسل بها الغربيون للهجوم على محمد ﷺ وعلى الدين الذى جاء به .

– ٢ –

يتألف الكتاب من فصول عشرة ، يتناول الفصل الأول منها – وهو بعنوان « العدو محمد » – جذور العداء الغربى للإسلام وتطور هذا العداء على مر العصور . وتردُّ المؤلفة جذور هذا العداء إلى ما يعرف عند الغربيين بحادث « شهداء قرطبة » فى إسبانيا الإسلامية فى القرن التاسع الميلادى حيث حُكم على هؤلاء بالإعدام ؛ لأنهم سبوا محمدًا ﷺ سبًا بذيئًا مقذعًا . وكان أول من فعل ذلك من هؤلاء راهب يُدْعَى « بيرفكتوس » ، فقد وصف هذا الراهب نبيَّ الإسلام بأبشع الصفات حين سأله بعض المسلمين فى سوق قرطبة أن يفاضل بين عيسى ومحمد . ولم يُرِد القاضى أن يصدر حكمًا بإعدام هذا الراهب « إذْ رأى أنه كان ضحية استفزاز ظالم من المسلمين » (١) . ولكن هذا العفو لم يرُد

---

(١) كارين آرمسترونج « سيرة النبى محمد » صـ ٣٣ .

الراهب إلى صوابه ، فعاود هجومه البذىء على نبى الإسلام ، وهنا لم يجد القاضى بدًّا من أن يحكم بإعدامه . وهكذا خلع عليه زملاؤه المسيحيون صفة « الشهيد » وأحاطوه بهالة من القداسة ، وكان ذلك مشجعًا لغيره من المسيحيين أن يحذوا حذوه ليلاقوا نفس المصير . وقد وصل عدد هؤلاء إلى حوالى خمسين .

تعترف المؤلفة بأن هذا حادث شاذ ؛ فقد كانت العلاقة طيبة بين المسلمين والمسيحيين فى إسبانيا الإسلامية ، وكان المسيحيون - كما كان اليهود - يتمتعون بحريتهم الدينية كاملة تحت ظل الحكم الإسلامى ، بل إن معظم أهل إسبانيا كانوا يعتزون بانتمائهم إلى تلك الثقافة الإسلامية الرفيعة (١) . ومع ذلك فقد وجدت افتراءات « شهداء قرطبة » ضد محمد ﷺ صداها لدى المتعصبين ، وصيغت هذه الافتراءات فى شكل قوالب جاهزة يرددها الخلف دون تفكير ؛ ويأتى على رأس هذه القوالب اتهام محمد بأنه دجال ، كاذب ، فاسق ، شهوانى ، ساحر ، مجنون ، يلجأ إلى السيف لحمل الناس على اعتناق الإسلام .

وجاءت الحروب الصليبية فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى لتمنح هذه القوالب الجاهزة مزيدًا من التمكين والانتشار . ومن هنا تعامل الصليبيون مع المسلمين بوحشية بالغة ضاربين عرض الحائط بكل أخلاقيات الحروب ، وكانت المذبحة البشعة التى أنزلوها بسكان بيت المقدس تعبيرًا بليغًا عن مخزون هائل من العداء والكراهية يُكنه الغرب للإسلام ورسوله .

وعندما سقطت غرناطة ، آخر قلعة إسلامية فى الأندلس ، فى يد فرديناند وإيزابيلا فى سنة ١٤٩٢ م واجه مسلمو إسبانيا الاختيار بين الطرد أو اعتناق المسيحية ، كما خضع من تبقى منهم في إسبانيا لإجراءات محاكم التفتيش التى مارست ضدهم اضطهادًا قاسيًا على مدى ثلاثمائة سنة أخرى .

وقد عبر الشاعر الإيطالى دانتى (١٢٦٥ - ١٣٢١ م) فى الكوميديا الإلهية عن عداء الغرب المتأصل لنبىّ الإسلام حين وضعه بين أهل الجحيم ودمغه بأبشع الأوصاف .

---

(١) نفس المرجع ، ص ٣٢ - ٣٤ .

صحيح أن العصور الوسطى فى أوروبا شهدت بعض المحاولات التى كانت تهدف إلى تقديم صورة أكثر موضوعية عن الإسلام ، مثل تلك المحاولة التى قام بها بيتر المبجل فى القرن الثانى عشر الميلادى ، ولكن هذه المحاولات لم تطمس صور الكراهية الراسخة للإسلام .

ثم جاء عصر النهضة الأوروبية الذى شهد مزيدًا من المحاولات لإنصاف الإسلام ، ولكنها كانت محدودة العمق والتأثير . ويتميز القرن الثامن عشر بصفة خاصة بمحاولة تبنِّى هذا الموقف المنصف تجاه الإسلام ، ولعل من ألمع الأسماء في هذا المجال فوليتر وجيبون وجورج سيل ؛ ولكن المؤلفة تلاحظ أن هؤلاء الكتَّاب لم يستطيعوا التخلص تمامًا من الماضى فى نظرتهم إلى محمد والإسلام حيث كانوا يعبرون بين الحين والآخر عن صور العداء الغربى القديم (١) .

أما القرن التاسع عشر - وهو قرن الاستعمار - فقد شهد عودة الروح الصليبية فى الغرب وتجدُّد الهجوم الفكرى على الإسلام . وقد عبّر عالم اللغة الفرنسى « رينان » عن هذا الاتجاه بوضوح . ولم يتوقف هذا الاتجاه بمجيء القرن العشرين ؛ فقد ظهرت الروح الصليبية واضحة فى تصريح الجنرال أللنبى عند وصوله إلى القدس فى عام ١٩١٧ بأن الحملات الصليبية قد اكتملت ؛ وفى قول القائد الفرنسى وهو على قبر صلاح الدين بعد دخول الفرنسيين دمشق : « لقد عدنا يا صلاح الدين ! » (٢) .

بل إننا نستطيع أن نلمس هذه الروح العدائية خلال هذا النصف الثانى من القرن العشرين ؛ فقد دأب الغربيون على وضع أنماط وقوالب جديدة للتعبير عن كراهيتهم للإسلام . وقد كان القالب فى السبعينيات هو شيوخ النفط الأثرياء ، وفى الثمانينيات « آية الله » المتعصب . أما بعد قضية سلمان رشدى وفى هذا العقد الأخير من القرن العشرين فقد أصبحت صورة الإسلام هى صورة الدين الذى يصادر الإبداع ويخنق الحريات .

هكذا ترصُدُ كارين آرمسترونج - فى ذلك الفصل الأول التمهيدى - جذور

(١) نفس المرجع ص ٥٧ - ٥٨ .

(٢) نفس المرجع ص ٦٢ - ٦٣ .

العداء الغربى للنبى محمد ﷺ وتطوّر هذا العداء على مر العصور . وهى ترى أن هذا العداء التقليدى الراسخ قد جعل نظرة الغرب إلى الإسلام تتسم بالتحيز والتحامل ، وجعل الأديان الأخرى - كالبوذية واليهودية وغيرهما - تحظى بالتعاطف الذى لا يحظى به الإسلام (١) .

من هذا المنطلق تحاول آرمسترونج أن تقدم الصورة التى تراها منصفة عن الرسول عليه السلام . وقد نختلف معها في بعض التفاصيل أو وجهات النظر ، ولكن الذى لاشك فيه أن هذه محاولة جديرة بالاعتبار .

ففى الفصل الثاني - وهو بعنوان « محمد رجل اللّه » توضح المؤلفة كيف أن الرسول ﷺ استقبل الرسالة فى وقت كانت بلاد العرب فيه تعانى من تفكك مزمن . ومع ذلك فعند وفاته بعد ثلاثة وعشرين عامًا كان قد نجح فى لمّ شمل القبائل جميعِها وضمّها إلى مجتمعه المسلم . ولو كان ذلك النصر السياسى هو الإنجاز الوحيد لمحمد لكان من حقه أن يحوز الإعجاب . ولكن نجاح محمد - فى الحقيقة - اعتمد على الرؤية الدينية التي نقلها للعرب (٢) . ثم تتحدث المؤلفة فى هذا الفصل أيضًا عن المؤرخين الأربعة الذين يعتمد عليهم أي باحث فى سيرة الرسول ﷺ - وهم محمد بن إسحاق ومحمد بن عمر الواقدى ومحمد بن سعد وأبو جعفر محمد بن جرير الطبرى ، وتتحدث عن المنهج النقدى الصارم الذى أخذ هؤلاء المؤرخون أنفسهم به ، وعن اعتمادهم على الوثائق المبكرة فى سردهم للأحداث ، وعن تتبعهم للروايات الشفهية في مصادرها الأصيلة . ومن هنا فإن ما قدمه لنا هؤلاء يمثل صورة واقعية صادقة عن ذلك الإنسان غير العادى . كما تُبرز المؤلفة فى هذا الفصل أيضًا أهمية القرآن الكريم كمصدر أساسى من مصادر السيرة . ثم تختم هذا الفصل بحديثها عن ظروف الجزيرة العربية وقت ظهور الإسلام ، وهى الظروف التى جعلت إقناع محمد ﷺ للعرب بقبول فكرة التوحيد إنجازًا خارقًا . ويتمثل لنا هذا الإنجاز بوضوح حين نتذكر أن الإسلام لم ينشأ كما نشأت المسيحية فى ظل ظروف مهّدتْ لقبولها وفى عناية موروثات مؤسسية فالمسيحية نشأت فى أحضان اليهودية ، وكان

(١) نفس المرجع ص ١٦ - ١٧ .

(٢) نفس المرجع ص ٧٣ .

المسيحيون الأوائل من اليهود ، وكانوا على استعداد لقبول دعوة دينية سماوية . أما محمد ﷺ فقد بدأ من لا شيء ، واستطاع فى ظل ظروف قاسية أن ينجز هذا الإنجاز ويؤسس ديانة التوحيد فى وقت كان البعض يعتقد فيه أنه سيكون محظوظًا لو نجا بحياته !

وفى الفصل الثالث - وهو بعنوان « الجاهلية » - تتناول المؤلفة - باختصار - حياة العرب الجاهليين من جوانبها المختلفة : الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية ، فهي تتحدث عن جفاف الحياة فى شبه الجزيرة العربية بصفة عامة ، وعن تأثير ذلك فى تكوين الأخلاق القبلية وما يرتبط بها من عادات كالأخذ بالثأر وتبادل شنّ الغارات السريعة ووأد البنات ، هذا بالإضافة إلى بعض الأخلاق الإيجابية كالكرم والمروءة والشهامة . كما تتحدث عن الأنشطة الاقتصادية ومراكز التجارة فى بلاد العرب وعلى رأسها مكة التى كانت تقطنها قبيلة قريش . فلا غرو أن تصبح قريش من أكثر القبائل العربية ثراء ووفرة . وتتناول المؤلفة فى هذا الفصل أيضًا صراع القوتين العظميين - إمبراطورية الفرس وإمبراطورية الروم - على مناطق النفوذ فى شبه الجزيرة العربية وما ارتبط بذلك من تكوّن إمارات عربية تابعة لإحدى هاتين القوتين ، ومِنْ جَعْلِ الدين متّكأً فى هذا الصراع . وقد انتشرت المسيحية المونوفيسيتية بين عرب الشام أتباع الروم وعلى رأسهم الغساسنة ، كما انتشرت المسيحية النسطورية بين عرب الحيرة اللخميين أتباع الفرس ، أما اليهودية فقد وجدت قواعد لها فى اليمن وفى يثرب (المدينة المنورة فيما بعد) . ولكن السواد الأعظم من العرب الجاهليين لم يكن يدين بدين سماوى . وهكذا انتشرت الوثنية بين هؤلاء . ومع ذلك فقد كانت للعرب أشواقهم الدينية ، وكانت فكرة التوحيد - رغم غموضها لديهم - موجودة عندهم ؛ فقد وجد بينهم الحنيفيون . وكان البيت الحرام يمثل لونًا من الحياة الروحية للعرب . ولكن إدراك هؤلاء أنه لم يكن لهم كتاب سماوى جعلهم يشعرون أن اليهودية والنصرانية أرقى من الديانة التى يدينون بها .

ثم يأتى الفصل الرابع وهو بعنوان « الوحى » : وفى بدايته تتناول المؤلفة أطرافًا من الحياة المبكرة لمحمد ﷺ ، ثم تتحدث عن شبابه وصلته بعمه أبى طالب

واشتغاله بالتجارة وصلته بخديجة ثم زواجه منها ، وتتحدث المؤلفة بإعجاب بالغ عن هذه السيدةَ الفذة وعن دورها فى حياة محمد ، سواء قبل البعثة أو بعدها ، وهى لا ترى أن زواجه بخديجة كان زواج مصلحة بل كان زواج اقتناع كامل متبادل ، ولكنها تشك فى أن خديجة كانت فى الأربعين من عمرها عند زواجها من محمد ﷺ ؛ فالمعروف أنها أنجبت منه ستة أطفال على الأقل ، ومن الصعب أن تنجب هذا العدد بعد سن الأربعين ؛ ولهذا فهى تطرح احتمال أنها كانت دون الأربعين (١) .

تُبرز المؤلفة دور السيدة خديجة فى مساندة الرسول ﷺ عند تعرضه لتجربة الوحى ، وهى تجربة رهيبة ، ثم تحلل تلك التجربة وتقبلها تمامًا وترد على القائلين بأنها هيستيريا ؛ وتقريبًا للصورة تقارن بين الوحى الدينى والوحى الذى يتلقاه الفنانون والمفكرون . فقد قفز أرشميدس مثلًا من حمّامه ، بعد أن اكتشف مبدأه ، وأخذ يصيح : « وجدتها » ! وفى تعليق آرمسترونج على ذلك تقول : « حينما كان أرشميدس مستلقيًا كان فى حالة تلقٍّ عقلى وبدا الحل وكأنه قد دخله دون أن يستدعيه ، وكأن الحل كان له وجود مستقل عن عقله . وبشكل ما فإن كل الأفكار الخلاقة التلقائية موحاة ، وتتطلب قفزة إلى الأمام فى عالم الحقيقة غير المختلقة . وإذا نحن نظرنا إليها من تلك الزاوية فالوحى لا يعنى تراجع العقل ، لكنه العقل وقد تزايدت سرعته وقد تكبسل أو تم تكثيف محتوياته بحيث يظهر الحل دون معاناة الإعداد المنطقى » (٢) .

وتحلل المؤلفة كلمة « وحى » أو « كشف » Revelation وترى أن دراسة أصل هذا اللفظ توضح وجود شىء تم إماطة اللثام عنه ، ولكنها تؤكد أنه لا يمكن لرؤية أو مفهوم دينى أن يكون مبتكرًا ؛ لأنه يعبر عن حقيقة جوهرية سابقة الوجود . وقد كان الدين الذى أوحى اللّه به إلى محمد هو الدين الذى سبق أن أوحى به مرات ومرات والذى أناط بمحمد مهمة تبليغه إلى قومه . فهذا الدين لم يبدأ على جبل حراء بل في يوم الخليقة ؛ فقد جعل اللّه آدم خليفته على الأرض ، وبعد ذلك أرسل الرسل واحدًا تلو الآخر لكل أمم الأرض ، وعلى هذا فجوهر جميع الأديان واحد ، وليس للبشر أن يبتغوا دينًا غير دين اللّه (٣) .

(١) نفس المرجع ص ١٢٥ - ١٢٦ . (٢) نفس المرجع ص ١٣٢ . (٣) نفس المرجع ص ١٣٤ .

ويتناول الفصل الخامس – وهو بعنوان « النذير » – جوهر الرسالة التى حملها محمد ﷺ لينذر بها قومه ، وتذكر المؤلفة أن الرسول كان يعتقد فى البداية أنه مرسل إلى قريش ، وكان يرى حينذاك أنه غير مكلف بمهمة سياسية بل كان النذير فحسب ، وهى تشير إلى أن جوهر الرسالة القرآنية الأولى هو إيجاد مجتمع العدل الذى يلقى فيه الضعفاء معاملة كريمة . فآيات القرآن المبكرة كانت تدور حول التحذير من تكديس الثورة الشخصية وتحضّ على توزيعها فى المجتمع . والمجتمع العادل مجتمع متسامح ؛ فالإسلام دين التسامح حتى لو بدا للبعض اليوم أن المسلمين غير متسامحين على نحو ما كانت عليه المسيحية الغربية من عدم تسامح . والواقع – كما تقول المؤلفة – أن المسلمين لا يتسامحون إزاء الظلم سواء أكان الذى يرتكبه أحد حكامهم مثل شاه إيران محمد رضا بهلوى ، أم إحدى الدول الغربية القوية (١) .

وتقدم المؤلفة فى هذا الفصل كذلك صورًا من تقشف محمد ﷺ وبساطته وأخلاقياته الرفيعة ، وتشرح أسلوبه فى الدعوة واقتصاره فى البداية على دعوة عدد مختار بحرص شديد ، ثم تتحدث عن المسلمين الأوائل وعن دورهم فى دعم الدعوة وعن ردود الفعل التى أظهرتها قريش إزاء الدعوة فى هذه المرحلة المبكرة وما ارتبط بذلك من انقسامات داخل الأسر نتيجة اعتناق بعضها للإسلام . وكانت معظم الانتقادات الأولى التى وجهها القرآن لقريش تتركز حول فكرة يوم الحساب . وينذر القرآن قريشًا بأن الثراء لن يجدى فتيلًا فى اليوم الآخر حين يُسأل كل فرد عما قدم لليتامى والفقراء ، ولماذا كان حريصًا على اكتناز المال بروح الأنانية . ولا شك أن هذه الفكرة لم تكن تلقى قبولًا لدى قريش ذات الثروات الطائلة . وتلاحظ المؤلفة فى ختام هذا الفصل أن محمدًا منذ نزول الوحى (٦١٠ م) حتى سنة ٦١٦ م قد تحاشى أى ذكر رسمى للآلهة العربية .

ومن هنا يناقش الفصل السادس – وهو بعنوان « افتراق الطرق » – تاريخ العلاقة بين محمد ﷺ وبين قريش فى مكة بعد سنة ٦١٦ م . فلم تكن قريش

---

(١) نفس المرجع ١٤٢ – ١٤٣ .

تهاجم الرسول بشدة فى السنوات الأولى للبعثة ؛ لأنه لم يكن يتعرض كثيرًا لدين آبائهم ، وكانت المبادئ التى جاء بها من الإحسان والبساطة وعدم التبذير لا تثير عداءهم ، ولكن عندما بدأ يذكر آلهتهم ويعيبها اختلف الموقف .

كان من الطبيعي أن تتناول المؤلفة فى هذا السياق قصة ما يسمى بـ « الآيات الشيطانية » ، وهو موضوع محبب لدى الغربيين الذين يتخذون منه وسيلة للتشكيك في مصداقية الإسلام . والموضوع باختصار - كما يرويه بعض المفسرين - أن الرسول ﷺ لما أعرض عنه قومه تمنى لشدة حرصة على إسلامهم «أن لا ينزل عليه ما ينفرهم لعله يتخذ ذلك طريقًا إلى استمالتهم » . فلما نزل عليه قوله تعالى فى سورة النجم : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ (١) وهو فى نادى قومه ، وسوس إليه الشيطان بقوله : « تلك الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لتُرتجى » ، ثم ألهمه الله أن هذا من الشيطان فنسخه وأبطله (٢) .

ترى كارين آرمسترونج أن « الأعداء الغربيين للإسلام رأوا فى القصة مناسبة كى يشككوا فى محمد ويبرهنوا على عدم إخلاصه . فكيف لرجل قام بتغيير الكلمات السماوية طبقًا لما ارتآه أن يكون نبيًا حقًا ؟ » (٣) . ولكنها تذكر أن مسلمين كثيرين يعتقدون أن هذه القصة مشكوك فى صحتها ولا توجد إشارة واضحة إليها فى القرآن ولم ترد فى الصحيحين . وحتى مع افتراض صحتها فإنها لا ينبغى أن تحتمل من التأويلات ما يطرحه هؤلاء المشككون . ثم تشير إلى أن الغربيين فقط هم الذين كانون يهتمون بهذه القصة حتى عام ١٩٨٨ ، وهو العام الذى ظهرت فيه رواية « آيات شيطانية » لسلمان رشدى لتكرار الأساطير الغربية القديمة عن محمد ، وقد حملت هذا العنوان لتحاول البرهنة على أن القرآن لا يميز بين الخبيث والطيب . والمؤلفة تعبر عن استنكارها لهذا الموقف ثم تقدم فى الوقت نفسه من الروايات التاريخية الموثقة ما يؤكد أن محمدًا ﷺ لم يقدِّم أى

---

(١) النجم : ١٩ - ٢٠ .

(٢) راجع تفسير الزمخشري لقوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته ... ﴾ وهى الآية ٥٢ من سورة الحج : الكشاف ص ٣ ، ص ١٦٤ - ١٦٥ .

(٣) سيرة النبى محمد ، ص ١٧١ .

تنازل لقريش فيما يتصل بعبادة الأوثان (١) .

وقد أدى هذا الموقف القاطع من الرسول تجاه عبادة الأوثان إلى أن تزداد الهوة اتساعًا بينه وبين مشركى قريش ، وأن تفترق طريقه عن طريقهم تمامًا . وهكذا أخذت العلاقات بين الطرفين منحنى خطيرًا منذ ذلك الوقت ، وكان من صور ذلك محاولة قريش إغراء أبى طالب أن يتخلى عن ابن أخيه ، ثم محاولتهم إنزال الأذى بمحمد وأتباعه مما دفع الرسول ﷺ إلى أن يلتمس لهم مهاجرًا فى الحبشة ، ثم تطورت الأمور إلى فرض الحصار المعروف بحصار الشعب على المسلمين ونبيهم . وقد حدث كل ذلك دون أن تلين للرسول وأتباعه قناة .

وتخصص المؤلفة الفصل السابع - وهو بعنوان : « الهجرة : قبلة جديدة » - للحديث عن مقدمات الهجرة إلى المدينة وحادثة الهجرة نفسها وما ترتب عليها من آثار . فهى تتحدث أولًا عن العام المعروف فى السيرة بعام الحزن وهو عام ٦١٩ م حيث توفيت فيه خديجة وأبو طالب ، ثم تتناول رحلة محمد ﷺ إلى الطائف يلتمس عون ثقيف وما لقيه هناك من صدٍّ واستهزاء آثار فى نفسه أعمق المواجع ، ثم ما تلا ذلك من تعرض محمد لأعظم تجربة دينية فى حياته فى سنة ٦٢٠ م وهى تجربة الإسراء والمعراج ، وتشير المؤلفة إلى الأهمية البالغة لهذه التجربة فى تنمية الطابع الروحى للإسلام . وعندما تذكر الخلاف الذى دار حول كيفية الإسراء والمعراج : هل كان بالروح أو بالجسد ، تعلق بقولها : « مهما يكن التفسير الذى نختاره لها فإن التجربة الدينية حقيقة من حقائق الحياة الإنسانية » (٢) .

وترى المؤلفة أن محمدًا بعد تجربة الإسراء والمعراج أصبح يرى أنه لم يعد مجرد منذر لقريش . ومن هنا أخذ يعرض نفسه على قبائل العرب فى موسم الحج ، وأدى ذلك إلى لقائه ببعض أبناء يثرب ثم إلى عقد بيعة العقبة الأولى والثانية ثم الهجرة إلى المدينة في سبتمبر ٦٢٢ م وقد كانت هناك خطوات قام بها الرسول خلال الفترة القصيرة التى تلت هجرته إلى المدينة ؛ فمن بينها تلك

---

(١) نفس المرجع ١٧٣ .
(٢) نفس المرجع ص ٢١١ .

المعاهدة التى أصبحت أساس العلاقة بين مجتمع المدينة (وهى التى عرفت بصحيفة المدينة) ، ومن بينها بناء المسجد . وقد كانت علاقته باليهود من بين الأمور التى شغلت اهتمامه خلال الفترة المبكرة من المرحلة المدنية . ورغم محاولة الرسول أن يقيم علاقات طيبة مع اليهود ورغم تأكيده بأن ما أنزل إليه يتفق فى جوهره مع ما أنزل إلى الأنبياء من قبله فإنه لم يلق من اليهود إلا إعراضًا وتكذيبًا وسخرية . وعندما أمره اللّه باتخاذ مكة قبلة جديدة للمسلمين فى صلاتهم بدلًا من بيت المقدس في أواخر يناير عام ٦٢٤ م (شعبان عام ٢ هـ) [١] فسر اليهود ذلك على أنه يمثل تحديًا لهم ، فاشتد عزمهم على التخلص من محمد ﷺ . وفى نفس الوقت كان مجتمع المدينة يتوقع هجومًا من مشركى مكة [٢] ، فبدأت حياة المسلمين فى المدينة تدخل طورًا جديدًا .

ويعالج الفصل الثامن هذا الطور الجديد ، وهو بعنوان : « الحرب المقدسة » وتحرص المؤلفة فى بدايته على أن تنفى عن الإسلام التهمة الشائعة وهى أنه دين السيف . وتعزو المؤلفة هذه التهمة إلى ما أصابه محمد ﷺ من نجاح سياسى وروحى مذهل فى المدينة مما دفع منتقديه فى الغرب إلى الزعم بأنه مُدَّعٍ استغل الدين وسيلة للقوة . فالغربيون يميلون - هكذا تقول آرمسترونج - إلى أن يروا الفشل والهوان سمات القائد الدينى ؛ لأن صورة عيسى المصلوب الذى قال إن مملكته ليست في هذا العالم هى التى تسود العالم المسيحى . وهكذا يحلو للكتب وبرامج التليفزيون فى الغرب حتى يومنا هذا أن تلهو بإبراز عناوين مثل : « حنق الإسلام » و « سيف الإسلام » و « الحنق المقدس » و « الرعب المقدس » [٣] ! .

تعتقد آرمسترونج أن هذا تشويه للحقيقة . وهى تدير معظم هذا الفصل حول فكرة مركزية وهي أن محمدًا ﷺ لم يكن عدوانيًا باحثًا عن الحرب ؛ فقد وصل إلى المدينة ناجيًا بحياته في سنة ٦٢٢ م ، واستمر خطر الإبادة يهدده ويهدد أتباعه طوال السنوات الخمس التالية . فالحقيقة التى لا مراء فيها - إذن - هى أن

---

(١) تاريخ الطبرى جـ ٢ ، ص ٤١٥ - ٤١٦ .

(٢) كارين آرمسترونج : سيرة النبى محمد ص ٢٤٤ - ٢٤٦ .

(٣) نفس المرجع ص ٢٤٧ .

محمدًا والمسلمين الأوائل كانوا يكافحون من أجل البقاء (١) ومن هنا وجّه القرآن اهتمامًا كبيرًا لوضع تشريعات الحرب العادلة .

فى ضوء ذلك تعالج المؤلفة علاقات الرسول الحربية بأعدائه منذ الهجرة حتى غزوة الخندق (الأحزاب) وما ارتبط بها من غزوة بنى قريظة من العام الخامس للهجرة . وقد كانت غزوة الخندق من أحرج المواقف التى تعرض لها المسلمون ؛ لأنهم كانوا مهددين بخطر الإبادة أثناء حصار الأحزاب للمدينة ، وقد زاد الموقفَ حرجًا بالنسبة للمسلمين خيانةُ يهود بنى قريظة وتواطؤهم مع الأحزاب مما استحقوا معه حكم القتل الذى قضى عليهم به سعد بن معاذ بعد فشل الحصار .

إن علاقة محمد ﷺ بيهود المدينة بصفة عامة تنال جانبًا لا بأس به من اهتمام المؤلفة فى هذا الفصل . وهى حين تستعرض تلك العلاقة تتصدى لكثير من الافتراءات الموجهة إلى الرسول بهذا الخصوص . لقد أظهرت القبائل اليهودية فى المدينة حقدها على المسلمين بعد انتصارهم فى بدر ، وكان أسبق هذه القبائل تعبيرًا عن حقدها بصورة عملية هم يهود بنى قينقاع (٢) ، ولكن العقوبة التى فرضها عليهم الرسول لم تتجاوز طردهم من المدينة ، وقد اتخذ الرسول موقفًا مماثلًا من بنى النضير حين ظهرت منهم نية الغدر فى مناسبة أخرى (٣) . ولكن غدر بني قريظة جاوز كل مدى إذ تحالفوا مع الأحزاب المحاصرين للمدينة ضد المسلمين فى وقت بالغ الحرج فكادوا بذلك أن يقضوا على الوجود الإسلامى بالمدينة ؛ ولهذا كان الحكم الذي صدر ضدهم بقتل رجالهم وسبى نسائهم وأطفالهم حكمًا يناسب جرمهم (٤) .

تؤكد كارين آرمسترونج أن « صراع محمد مع القبائل اليهودية الرئيسية الثلاث كان مختلفًا تمامًا عن الكراهية الدينية والعرقية التى أدت إلى أن يشعل مسيحيو أوروبا المذابح لمدة تقرب من ألف عام » (٥) ، وهى تعتقد أن هذا

(١) نفس المرجع ص ٢٥٢ - ٢٥٣ .
(٢) نفس المرجع ص ٢٧٥ .
(٣) نفس المرجع ص ٢٨٨ - ٢٩٠ .
(٤) نفس المرجع ٣٠٣ - ٣٠٧ .
(٥) نفس المرجع ص ٢٧٧ .

الصراع مع يهود المدينة كان ذا طابع سياسى محض ؛ فلم يكن بوسع المسلمين أن يؤوا عدوًّا لهم بينهم ببساطة . ولكن لعل أكثر ما يثير الغربيين فى صراع الرسول ضد اليهود هو قتله لبنى قريظة . وترى « آرمسترونج » أنه من الصعب على الغربيين أن يفصلوا بين تلك الحادثة وبين أفعال النازى الشنعاء . ولكنها تردّ على ذلك بأن الحالة فى المدينة فى زمن الرسول كانت تشبه الحالة فى القدس فى عصر داود الذى كان قاتلًا أعظم لأعداء الله . فمن الضرورى أن نتذكر أن الأمة الإسلامية كانت قد نجت من الإبادة بأعجوبة وقت الحصار ، « كما أن القرظيين أوشكوا أن يدمروا المدينة ، ولو أن محمدًا أطلق سراحهم لعملوا على زيادة معارضة اليهود فى خيبر ، ولنظموا هجومًا آخر ضد المدينة حيث لم يكن هناك ضمان لأن يحالف الحظ المسلمين مرة أخرى ، كما أن المعركة الدموية من أجل البقاء كانت ستستمر إلى ما لا نهاية ، ويَستمر معها المعاناة والموت »[(١)] . وتحرص المؤلفة على أن تسجل أن هذا الحادث لم يؤثر فى موقف المسلمين من اليهود . ففى ظل الدولة الإسلامية المترامية الأطراف تعايشت المجموعات الدينية المختلفة جنبًا إلى جنب . ولا شك أن « المعاداة للسامية خطيئة مسيحية غربية وليست خطيئة إسلامية ... ... ففي ظل الإمبراطورية الإسلامية تمتع اليهود مثلهم مثل المسيحيين ، بحرية دينية كاملة ، وعاش اليهود فى المنطقة فى سلام حتى إقامة دولة إسرائيل فى قرننا الحالى ، ولم يعان اليهود فى ظل الإسلام قط ما عانوه فى ظل المسيحية »[(٢)] .

لقد كان حديث المؤلفة عن الحرب المقدسة مَدْخَلًا لحديثها عن « السلم المقدس » ، وهذا هو موضوع الفصل التاسع . فالذى لا شك فيه أن فشل حصار الأحزاب فى غزوة الخندق كان بداية مرحلة جديدة فى تاريخ الدولة الإسلامية تتسم بالقوة والاستقرار . لقد تضعضعت قريش وكُسِرتْ شوكتها ولكن الرسول ﷺ لم يكن حريصًا على استئصالها بل كان حريصًا على أن يضمها إلى صفه . ومن هذه الزاوية تعالج المؤلفة « صلح الحديبية » . فالواضح أن الرسول عندما خرج مع أصحابه إلى مكة معتمرًا « كان قد قرر أن تكون المصالحة لا الحرب هى

(١) نفس المرجع ٣٠٨ .

(٢) نفس المرجع ص ٣٠٩ .

طابع تلك الرحلة » [١] . ومن هنا وافق على شروط الصلح التى أرادتها قريش رغم اعتراض بعض المسلمين عليها بدعوى أنها مهينة . وهكذا ترى آرمسترونج أن بدرًا والحديبية وجهان لعملة واحدة ، فأحيانًا يصبح القتال ضروريًا للوصول إلى الإسلام ، وأحيانًا يكون الصلح ضروريًا أيضًا لتحقيق هذه الغاية ، ولو بدا من حيث الظاهر مهينًا ، « ويخطئ من يظن أن الإسلام يدعو إلى التصلب الكامل فى الرأى أو أنه يلهم أصحابه التعصب الأعمى ، فالواقع أن القرآن نظرية دينية متكاملة للحرب والسلام ، ولن يكون من العسير على معظم المسيحيين أن يتقبلوها » [٢] .

وعندما تعالج المؤلفة فتح خيبر الذى حدث بعد صلح الحديبية بقليل تذكر أن تلك المستوطنة اليهودية قد لعبت دورًا خطيرًا أثناء حصار الأحزاب للمدينة ثم حاولت بعد ذلك أن تثير عداء القبائل الشمالية ضد محمد . ومن هنا أراد الرسول أن يضمن ألا تعود خيبر إلى تهديد أمن الدولة الإسلامية من جديد ، فحاصرها شهرًا في بداية العام السابع للهجرة ، ثم قبل شروط الصلح التى عرضها عليه سكان خيبر ولم تكن تتضمن إذلالًا كبيرًا لهم [٣] .

وقد كان من الضروري أن تتناول المؤلفة في هذا السياق الظروف التي أدت إلى فتح مكة وهي هنا تؤكد على انتهاك قريش لصلح الحديبية وعلى أن الرسول ﷺ حين توجه لفتح مكة لم يكن هدفه هو التنكيل بقريش بل إلغاء دين الشرك الذى خذلهم [٤] ، ثم تبرز المعاملة الإنسانية الرفيعة التى عامل بها محمد أهل مكة بعد استسلامهم له . وهى ترى أن الانتصار على مكة كان بمثابة الفتح النهائى الذى مهد له الانتصاران السابقان فى بدر والحديبية ، ولكنه فتحٌ قد تحقق دون إراقة دماء فأثبت نجاح سياسة محمد السلمية [٥] .

وقد استطاع محمد ﷺ أن يتغلب على حشود هوازن فى غزوة حنين بعد استسلام مكة له ، ثم اضطرت الطائف إلى الاستسلام له فى يناير ٦٣١ م ،

(١) نفس المرجع ٣٢٠ .
(٢) نفس المرجع ٣٣٣ .
(٣) نفس المرجع ٣٤٥ .
(٤) نفس المرجع ٣٦٠ .
(٥) نفس المرجع ٣٦٣ .

وبهذا انتشر السلام في ربوع شبه الجزيرة .

ثم إن المؤلفة لا تُغْفِل الإشارة فى ثنايا هذا الفصل إلى سياسة الرسول تجاه القبائل العربية الشمالية ، وهى تلك التى كانت تعيش فى كنف دولة الروم ، حيث حاول الرسول أن يمد إليها نطاق دعوته . ولا يعني ذلك - كما تقول المؤلفة - « أنه كان يحلم بفتح العالم بل كان معناه فحسب هو أنه كان يريد إبلاغ رسالة القرآن العربى إلى قبائل الشمال ، وربما أيضًا إلى العرب فى سوريا والعراق .. » (١) وقد ازداد اهتمام الرسول بالشمال فى السنوات الأخيرة من حياته كما تلاحظ آرمسترونج . ولكنها لا توجه الدراسة الكافية إلى سرية مؤتة وغزوة تبوك وما أحاط بهما من ملابسات وما ترتب عليهما من نتائج (٢) .

أما الفصل العاشر والأخير - وهو بعنوان : « وفاة الرسول » - فإن المؤلفة لا تتحدث فيه عن مرض الرسول ووفاته فقط ، بل تأخذ من ذلك مناسبة للحديث عن المجتمع القوى الذى نجح محمد فى بنائه ، وعن مكانة السياسة فى الإسلام وأهمية التزام الحاكم المسلم بالقيم الإسلامية الأساسية ، وعن النجاح المستمر للمشروع الإسلامى بعد وفاة الرسول مما يؤدى إلى الاعتقاد فى أن إعادة تنظيم المجتمع وفقًا لمشيئة اللّه تؤدى إلى سيادته ، كما تتحدث آرمسترونج فى هذا الفصل أيضًا عن نموذج الإنسان الكامل الذى قدمه محمد للأمة الإسلامية ليصير لها أسوة ، وهى تردد مع « ويلفرد كانتويل سميث » أن الإسلام الصحى الفعال هو أمر مطلوب ؛ لأنه يساعد الشعوب الإسلامية على تنمية قيم رفيعة ومُثُل يشاركهم فيها الغرب ؛ لأنها قد انبثقت من إرث مشترك وأن الضعف الأساسي للحضارة الغربية وللمسيحية فى العالم الحديث هو عدم القدرة على الاعتراف بأنهم يقتسمون الكوكب (٣) . وقد يكون من المناسب أن نختم هذا العرض بتلك الملاحظة الأساسية التى تقدمها آرمسترونج : « نحن فى الغرب لم نستطع أبدًا التعامل مع الإسلام . فأفكارنا عنه كانت ، وما زالت ، فجة ورافضة ، كما

---

(١) نفس المرجع ص ٣١٤ . (٢) نفس المرجع ص ٣٤٩ ، ٣٦٦ - ٣٦٧ .

(٣) نفس المرجع . وهى تحيل إلى :

W . C Smith , Islam in Modern History (Princeton and london , 1957) , P . 305 .

أننا الآن نبدو كأننا نناقض التزامنا المعلن بالتسامح والتراحم بازدرائنا الألم والأسى اللذين ظهرا حديثًا فى العالم الإسلامى . إن الإسلام لن يختفى ولن يخبو . وكان من الأفضل أن يظل مُعَافىً قويًّا . ونحن نأمل فقط ألا يكون الوقت قد فات » (١) .

ولعل هذه الملاحظة تمثل الهدف الرئيسى وراء تأليف هذا الكتاب .

- ٣ -

ربما كان من اللائق - بعد هذا الغرض الموجز لأهم محتويات الكتاب - أن نوجه عناية خاصة لما اضطلعت به « كارين آرمسترونج » من جهد فى سبيل تصحيح كثير من المفاهيم المشوهة التى ترسخت فى أذهان الغربيين عن الرسول ﷺ وعن الإسلام بصفة عامة . ولا شك أن المؤلفة بموقفها ذلك كانت تعبِّر - بصورة عملية - عن اقتناعها بأن علاج الموقف الغربى المتحامل على الإسلام يتطلب مزيدًا من الفهم الموضوعى المجرّد لهذا الدين .

لقد توارث الغربيون مجموعة من التهم الموجهة إلى محمد ﷺ ؛ وعلى رأسها أنه : مُدَّعٍ ، شهوانى ، متعصب ، عدوانى ، وأن موقفه من اليهود كان يتسم بالوحشية ، وأن الدين الذى أتى به يحارب البحث الحر والإبداع ، وأنه متحامل على المرأة ظالم لها ومنتقص من مكانتها فى المجتمع . والحق أن « آرمسترونج » تصدت لكل هذه التهم بالمناقشة والتفنيد فى غير موضع من كتابها .

على أن أخطر هذه التهم هى تهمة الادّعاء التى تتضمن أن محمدًا ﷺ كان غير صادق فى رسالته ؛ فقد اخترع قصة الوحى ليموه بها على الناس . وهذه التهمة تعنى - ببساطة - أن الإسلام كله لا أساس له .

ولكن الفصل الذي خصصته المؤلفة عن الوحى تضمَّن تحليلًا لأبعاد هذه التجربة الدينية البالغة الرهبة . ولا يتضمن هذا التحليل أى إشارة إلى أن محمدًا قد اخترع قصة الوحى . وقد حرصت المؤلفة فى هذا السياق على أن تناقش المنكرين لأُمِّيَّة محمد ﷺ . والواضح أن المنكرين لأمية الرسول يهدفون من وراء

(١) آرمسترونج : سيرة النبى محمد ص ٣٩٢ - ٣٩٣ .

ذلك إلى التشكيك فى صدق الوحى ؛ حيث يزعمون أن محمدًا قرأ الكتب السابقة ، وتأثر بها ، وصاغ رسالته في ضوئها ، وادعى أنها من عند اللّه . ويفسر هؤلاء لقب « أمى » على أنه مرتبط بكلمة « أمة » . فمحمد من وجهة نظرهم كان نبيًا « للأميين » الذين لم يتلقوا كتابًا سماويًا من اللّه ؛ أى أنه النبى المرسل لغير اليهود Gentiles . وترفض « آرمسترونج » هذا التفسير بشدة ، وترى أنه نابع من عدم استطاعة الغربيين أن يعتقدوا أنه كانت لمحمد رسالة نبوية حقًا ؛ وتعتقد أنه « من الحماقة أن نتحدى التفسير الموروث للمسلمين للفظ أمى . كما أنه لا يوجد في المصادر الأولى أى ذكر عن مقدرة محمد على الكتابة والقراءة ... ولو كان صحيحًا أن محمدًا قد أخفى مقدرته على الكتابة والقراءة طيلة حياته لكانت تلك خدعة كبرى . وخلافًا لكون ذلك منافيًا لطبيعته فإنه من الصعب جدًا الإبقاء على مثل تلك الخدعة إذا نحن أخذنا فى الاعتبار حميمية الصلة بين محمد وقومه » [١] .

وقد دارت قصة ما يسمى بـ « الآيات الشيطانية » ، التي اتخذها سلمان رشدى عنوانًا لروايته في إطار هذه التهمة . والواضح أن هدف الغربيين من ترويج هذه القصة - كما أشرنا سابقًا - هو التشكيك فى الرسول ﷺ توسُّلًا إلى التشكيك فى رسالته وفى القرآن الذى جاء به . ولكن « آرمسترونج » تشكك فى وثاقة هذه القصة ، ومن ثم ترفض اتخاذها وسيلة إلى التشكيك فى صدق الرسالة المحمدية ، وهى تؤكد أنه لم تكن لمحمد قط « حرية تغيير ما أوحى به إليه وفق ما يرى . فقد أوضح القرآن أنه ليس لمخلوق أن يغير فى كلمات اللّه ، ولو كان محمد نفسه قد أخذ مثل تلك المبادرة لكانت العواقب وخيمة . وباستطاعة اللّه إصلاح ما كان قد أسيء فهمه فى اللحظة التى يتم فيها الإيحاء إلى نبى ما » [٢] .

أما تهمة « الشهوانية » التى يولع الغربيون بإلصاقها بمحمد ﷺ فقد ناقشتها المؤلفة فى مواضع شتى من كتابها ودحضتها بالأدلة المقنعة . وتعتمد هذه التهمة على حقيقة لا ينكرها المسلمون ، ويسيء فهمها الغربيون ، وهى تعدد زوجات

---

(١) نفس المرجع ص ١٣٦ . (٢) نفس المرجع ص ١٧٧ .

الرسول . ولكن المؤلفة تذكر أن محمدًا - طوال حياة خديجة أولى زوجاته - لم يتزوج بأخرى . والمعروف أنه تزوج خديجة ، التى كانت تكبره بكثير ، وهو في سن الخامسة والعشرين ، وماتت وهو في حدود الخمسين (في العام العاشر للبعثة) (١) . ثم تذكر « آرمسترونج » فى موضع آخر أن موضوع زوجات الرسول أثار « تأملات كثيرة فى الغرب تتسم بالبذاءة والصفاقة » (٢) ، وتذكر أن الكتاب المقدس لا يجد غضاضة فى الحديث عن الإنجازات الجنسية للملك داود أو الزوجات اللائى لا يحصى عددهن للملك سليمان ، ويُعتبر عدد زواجات النبى محمد بالقياس إلى زوجاتهما ضئيلًا إلى درجة كبيرة (٣) . وفى هذا السياق تتحدث عن زواج الرسول من سودة بنت زمعة وعائشة بنت أبى بكر ، وتذكر أن هذا الزواج « لم يكن يستند إلى المفاتن الجسدية لأى منهما ، فلم تكن عائشة سوى طفلة صغيرة ، وكانت سودة قد بلغت الثلاثين وتخطت مرحلة ربيع الشباب » (٤) . إن هاتين الزيجتين - كما ترى المؤلفة بحق - كانت لهما أبعادهما السياسية ، ويتضح البعد السياسى أو الاجتماعى فى غيرهما أيضًا (٥) .

على أن الموضوع الذى يثير فضول الباحثين الغربيين في هذا الصدد ويحظى بمزيد من اهتمامهم هو قصة زواج الرسول ﷺ من زينب بنت جحش ، إذ يحلو للغربيين أن يلتمسوا فيها دليلًا قويًا على « شهوانية » محمد . وملخص هذه القصة - كما ترويها مصادرنا - أن الرسول ذهب ذات يوم إلى بيت مُتَبَنَّاه زيد ابن حارثة فى بعض شأنه فلم يجده فى بيته . وكان زيد زوجًا لزينب بنت جحش بنت عمة رسول الله (٦) ، وكان الرسول قد زوَّجها إياه . وعندما أخبرته زينب بأن زيدًا ليس في داره انصرف وهو يقول : « سبحان الله العظيم ! سبحان الله مصرِّف القلوب ! » (٧) . ثم قصَّتْ زينب على زيد ما سمعته من الرسول

---

(١) تاريخ الطبرى جـ ٢ ص ٣٤٣ .
(٢) سيرة النبى محمد ص ٢١٩ .
(٣) نفس المرجع والصفحة .
(٤) نفس المرجع ص ٢٢٠ .
(٥) نفس المرجع والصفحة وانظر أيضًا ص ٢٧٢ - ٢٨٧ من المرجع نفسه .
(٦) جاء فى الترجمة ص ٢٩٢ أنها بنت عم رسول الله ؛ وهذا مما تتسع لـ كلمة Cousin فى الإنجليزية ، ولكن الواقع أنها بنت عمة رسول الله ، فأمها هى أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم . انظر أنساب الأشراف للبلاذرى جـ ١ ص ٨٨ .
(٧) تاريخ الطبري جـ ٢ ص ٥٦٢ .

فتوهم زيد أنها حظيت بإعجابه فعرض على الرسول أن يطلقها ليتزوجها إذا أراد ، فقال له الرسول : ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ﴾ . وكان المعروف حتى ذلك الوقت أن علاقة التبنى يترتب عليها ما يترتب على علاقة البنوة الحقيقية . فلم تكن زينب لتحل لرسول الله ؛ لأنها زوجة متبناه . وقد أراد الله سبحانه أن يبطل ذلك . ولم تكن العلاقة بين زيد وزينب على ما يريده زيد ؛ فقد قال للرسول إنها « تتعظم عليّ لشرفها وتؤذينى » [1] . وقد طلّقها زيد أخيرًا فتزوجها رسول الله ﷺ (فى العام الخامس للهجرة) ﴿ لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾ [2] .

تذكر « كارين آرمسترونغ » - فى تعليقها على هذا الحادث - أن كُتَّابًا غربيين ، مثل : فولتير وبريدو ، يرونه « برهانًا على شهوة محمد للنساء وعن استغلاله الوحى من أجل تحقيق ما يشتهيه » [3] ! ولكنها لا تتبنى هذا الموقف بل تعرض بأمانة وجهة النظر الإسلامية بهذا الصدد ؛ فهى تذكر أن المسلمين ينكرون أن محمدًا تزوج زينب عن شهوة وقد كانت على مشارف الأربعين حينئذ ، وكان من المستبعد أن تثير عاصفة فى صدر أي رجل ، فكيف تثير عاصفة في صدر قريب لها كان قد عرفها منذ أن كانت طفلة ! فتفسير ما حدث إذن - من هذه الوجهة - أن الرسول شعر بالمسئولية تجاهها بعد أن طُلِّقتْ ، لأنه كان يولى اهتمامًا بالنساء غير المحصنات من الأمة . « فلو أنه ابتغى زينب لجاذبيتها الجنسية لتزوجها قبل ذلك بسنوات عديدة . كما أن الحادثة تبرهن أيضًا على أن العلاقة بالتبنى تختلف عن صلة الدم وليس لها أن تمنع الزواج » [4] .

وتناقش المؤلفة كذلك ما اتهم به الرسول والإسلام من تعصب وترفض هذه التهمة اعتمادًا على حقائق التاريخ ومبادئ الإسلام . فقد سعى الرسول ﷺ - بناء على توجيهات القرآن - إلى إقامة مجتمع عادل متسامح [5] ، وترك لليهود والمسيحيين حرية اعتناق الإسلام ، وهو ما التزم به أتباعه ؛ « فلم يجد المسلمون

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري جـ ٣ ، ص ٥٤٠ .

(٢) الأحزاب : ٣٧ .

(٣) سيرة النبى محمد ص ٢٩٢ .

(٤) نفس المرجع ص ٢٩٣ .

(٥) نفس المرجع ص ١٤٢ .

قط مشكلة في أن يتعايشوا مع أهل الكتاب » - كما تقول آرمسترونج - « وقد استضافت الإمبراطورية الإسلامية المسيحيين واليهود لقرون عدة . لكنها أوروبا الغربية المسيحية هى التى وجدت أنه من شبه المحال أن تتقبل المسلمين واليهود فى أراض مسيحية » (١) .

أما اتهام الرسول بالعدوانية والرغبة فى إشعال الحروب دون ضرورة فهذا أمر ترفضه المؤلفة فى كل سياق يتيح لها ذلك . فقد ذكرت فى غير موضع أن حروب محمد ﷺ كانت ضرورية ، وكانت من أجل تحقيق السلام بالدرجة الأولى (٢) ، كما ذكرت أن القرآن يعلمنا « أن الحرب دائمًا أمرٌ بغيض وأنه لا يجب على المسلمين أن يبدأوا بالعداوات ؛ لأن الحرب العادلة هى التى تُشَنُّ للدفاع عن النفس فقط » (٣) . ومن هذا المنطلق ترفض آرمسترونج رفضًا قاطعًا ما يشاع عن الإسلام فى الغرب من أنه دين السيف (٤) ، وترى أن الإسلام فى جوهره هو دين السلام (٥) .

وبالمثل ترفض المؤلفة اتهام الرسول ﷺ بأن موقفه من اليهود كان وحشيًا . وهى تعتمد فى هذا الرفض على ذكر الملابسات التاريخية التى أحاطت بتطور علاقة الرسول باليهود ، وقد أشرنا إليها باختصار فى عرضنا السابق - لقد أبرزت « آرمسترونج » بوضوح - وفي ضوء حقائق التاريخ - أن الرسول كان حريصًا على بناء علاقات تفاهم وتعاون مع اليهود ، ولكن اليهود كانوا الطرف الذى أظهر الحقد والتآمر والغدر .

وكان عقاب الرسول لهم فى الغالب أميل إلى اللين منه إلى الشدة . أما يهود بنى قريظة الذين عوقبوا بقتل مقاتلتهم وسَبْى نسائهم وأطفالهم فقد كان جُرْمُهُمْ بالغ الوحشية والفظاعة ؛ لأنهم أوشكوا أن يكونوا سببًا فى اجتثاث شأفة المسلمين تمامًا أثناء حصار الأحزاب للمدينة (٦) .

---

(١) نفس المرجع ص ١٣٥ .

(٢) نفس المرجع ص ٢٥٢ - ٢٥٣ ، وص ٣١٠ .

(٣) نفس المرجع ص ٣١٠ .

(٤) نفس المرجع ص ٢٤٧ .

(٥) نفس المرجع ص ٣١١ .

(٦) ناقشت المؤلفة علاقة الرسول باليهود فى مواضع مختلفة من كتابها . ارجع إلى الصفحات ٢٧٤ - ٢٧٥ ، ٢٧٧ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ .

نأتى إلى اتهام الغربيين للدين الذى أتى به الرسول بأنه يحارب البحث الحر والإبداع . وقد تصاعد هذا الاتهام وازدادت نبرته حدةً فى الغرب بعد ردود الفعل الحادة التى ظهرت فى أنحاء العالم الإسلامى نتيجة ظهور آيات سلمان رشدى الشيطانية ، وتنفى المؤلفة عن الإسلام هذه التهمة نفيًا قاطعًا ، وتذكر أن القرآن لا يطلب من المسلمين أن يتخلوا عن العقل ؛ فالآيات موجهة ﴿ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ و﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ ، والقرآن يشجع المسلمين على النظر والتدبر العميق للآيات فى العالم الطبيعى . وتلاحظ « آرمسترونج » أن هذا الاتجاه ساعد « على تنمية عادة التأمل والاستطلاع الذكى التى مكنت المسلمين من إرساء وتطوير تراث رائع فى العلوم الطبيعية والرياضيات . ولم ينشأ فى يوم من الأيام أى صراع بين البحث العلمى العقلاني وبين الدين فى التراث الإسلامى على نحو ما اتضح فى القرن التاسع عشر عندما أحس المسيحيون أن مكتشفات لايل وداروين تؤدى إلى تقويض الدين تقويضًا لا قيام له بعده » (١) .

ولعل من أكثر التهم شيوعًا لدى الغربيين فى هذا الصدد ما يُنْسَبُ إلى الإسلام والرسول من تحامل على المرأة وظلم لها . وتعبِّر المؤلفة عن دهشتها واستنكارها الشديد لهذا الاتهام فى غير موضع من كتابها . وهى تذكِّرنا بما كانت عليه حياة المرأة قبل ظهور الإسلام حيث كان وأد البنات هو القاعدة ، وحيث لم تكن للمرأة أية حقوق ، وهذا يعنى فى رأيها أن ما أنجزه محمد ﷺ للمرأة غير عادى ؛ فقد أعطاها الإسلام حق أداء الشهادة وحق الإرث . وتلاحظ المؤلفة أنه كان على النساء أن ينتظرن فى أوروبا المسيحية حتى القرن التاسع عشر حتى يحصلن على ما هو مشابه من الحقوق ؛ لأن القانون ظل فى صف الرجال (٢) .

ولا ترى « آرمسترونج » فى إباحة الإسلام لتعدد الزوجات ترخيصًا باضطهاد المرأة ؛ ذلك أنه « حينما كان متاحًا للرجل أن يتزوج أى عدد من النساء كان التقيد بأربع بمثابة حد لتلك الممارسة وليس ترخيصًا باضطهاد جديد » (٣) . وتضيف المؤلفة أن الآيات القرآنية التي تبيح التعدد تشترط ضرورة العدل بين الزوجات ، فإن انتفى

(١ ، ٢) سيرة النبى محمد ص ٢٨٥ . (٣) نفس المرجع والصفحة .

العدل حرم التعدد . ولما كان العدل عسيرًا فإن الزواج من اثنتين إلى أربع لا يباح إلا فى أضيق نطاق (١) .

وتقول المؤلفة فى موضع آخر : إنه « ليس من الإنصاف أن نلوم محمدًا أو الإسلام بتهمة كراهية المرأة ، فإذا كانت النساء المسلمات اليوم يرفضن بعض الحريات التى نشعر أننا قدمناها إليهن فلا يرجع سبب ذلك إلى العناد ، بل إلى التخبُّط فى النظرة الغربية إلى المرأة وفى العلاقات بين الجنسين . فنحن ندعو إلى المساواة وإلى التحرر ، ولكننا فى الوقت نفسه نستغل المرأة ونمتهنها فى الإعلانات وفى الكتابات والفنون الإباحية وفى كثير من أشكال الفرجة الشعبية بأسلوب يستهجنه المسلمون ويتأذون منه » (٢) .

وتنتهى المؤلفة إلى أن الإسلام لم يسحق المرأة على نحو ما يتخيله الناس فى الغرب ، بل إنه مكّنها من النهوض بدور كان من المحال عليها أن تنهض به فى الجاهلية (٣) .

* * *

فهذه إشارات موجزة إلى الجهد الكبير الذى بذلته « كارين آرمسترونج » فى تفنيد الادعاءات التى اتُّهم بها الغربيون الإسلام ومحمدًا ﷺ ، وهى ادعاءات أكسبها القدم قدرًا كبيرًا من الرسوخ والمصداقية لهم . ومن هنا يصبح من يتصدى لهذه الادعاءات فى الغرب خارجًا على الصف ، محاطًا بالكثير من علامات الاستفهام ، متحليًا فى الوقت نفسه بقدر وافر من الشجاعة الأدبية . وهذا ما يفسح لهذا الكتاب مكانًا خاصًا بين الدراسات الغربية التى تناولت سيرة النبى محمد ﷺ .

- ٤ -

بقى أن نشير إلى أن كتاب « آرمسترونج » - رغم إيجابياته العديدة - لا

---

(١) نفس المرجع ص ٢٨٥ - ٢٨٦ .
(٢) نفس المرجع ص ٣٥٤ .
(٣) نفس المرجع ص ٣٥٦ .

يخلو من بعض الأمور التى تحتاج إلى تصحيح أو مراجعة . وهذا طبيعى ؛ فلا يكاد يسلم كتاب - مهما بلغت جودته - من مآخذ أو اختلاف فى وجهات النظر .

وملاحظاتنا هنا تنقسم إلى قسمين : أما أولهما فيتعلق بمستوى الدقة التاريخية فى عرض بعض القضايا والأحداث ؛ وأما الثانى فيتعلق بمدى صحة بعض الآراء التى تقدِّمها المؤلفة .

أ - يندرج تحت القسم الأول ما تذكره المؤلفة من أن الإمبراطور البيزنطى هرقل امتنع عن دفع المعونات إلى الغساسنة من باب الاقتصاد فى النفقات إبان الحرب مع الفرس فى عام ٥٨٤ م تقريبًا (١) . ولكن هذا يدخل فى باب المفارقات التاريخية ؛ لأن المعروف أن هرقل تولى الحكم فى دولة الروم فى سنة ٦١٠ م (٢) .

ومن ذلك أيضًا ما جاء فى حديث المؤلفة عن حصار قريش للمسلمين فى شعب أبى طالب حيث ذكرت أن أفراد بنى هاشم وبنى عبد المطلب انتقلوا «للسكنى من ناحية عشيرة أبى طالب التى أصبحت (جيتو) صغيرًا » (٣) . ولكن أفراد بنى عبد المطلب ينتمون إلى بنى هاشم ؛ فهم بنو عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف . والواضح أن المؤلفة تقصد بنى المطلب لا بنى عبدالمطلب ؛ فبنو المطلب بطن مستقل من بطون قريش ينتمى ، مثل بنى هاشم ، إلى عبد مناف (٤) .

ومما يمكن أن يندرج تحت ذلك أيضًا ما تذكره المؤلفة من أن القرآن لا يتضمن الإشارة إلى النبى إبراهيم قبل نزول السور المدنية (٥) . والحق أن الإشارة إلى إبراهيم عليه السلام تتكرر كثيرًا فى السور المكية فى القرآن الكريم . فمن ذلك قوله تعالى :

---

(١) نفس المرجع ص ٨٨ .

(٢) Ostrogorsky , History of the Byzantine State , p.g 2 .

(٣) سيرة النبى محمد ص ١٩٥ .

(٤) أنساب الأشراف للبلاذرى جـ ١ ص ٢٣٠ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٥١٧ .

(٥) سيرة النبى محمد ص ٢٤٢ .

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ (١) ، وقوله سبحانه : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ (٢) ، وقوله جل وعلا : ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾ (٣) ، إلى غير ذلك من آيات السور المكية .

ثم إن المؤلفة ، فى أثناء تناولها لغزوة بدر ، تذكر أن عدد مَن شارك فيها من المسلمين بلغ ثلاثمائة وخمسين ، وأن الرسول لم تكن لديه فكرة عن عدد الجيش المكى ، ولو عرف عدده لكان من المحتمل أن يعدل عن رأيه بشأن القتال (٤) .

على أن ما تقدمه مصادرنا بهذا الخصوص يشير إلى أن عدد المشاركين فى هذه الغزوة من المسلمين بلغ حوالى ثلاثمائة وأربعة عشر رجلًا ، ينقصون أو يزيدون قليلًا (٥) . أما أن الرسول ﷺ لم تكن لديه فكرة عن عدد الجيش المكى فإن مصادرنا تقدم ما يفيد عكس ذلك . فقد نجح المسلمون فى الإمساك بغلامين من غلمان قريش بالقرب من ماء بدر . وعندما جاءوا بهما إلى الرسول سألهما عن عدد من خرج من قريش لقتال المسلمين ، فقالا : لا ندرى . قال : كم ينحرون كل يوم ؟ قالا : يومًا تسعًا ويومًا عشرًا . فقال الرسول : « القوم ما بين التسعمائة والألف » ، وقد كانوا فعلًا كذلك (٦) .

وتتناول المؤلفة ، فى حديثها عن المساواة فى الإسلام ، قصة إسلام جبلة بن الأيهم وارتداده فى خلافة عمر بن الخطاب ، ولكنها تصف جبلة بأنه « أحد رؤساء البدو » (٧) . والحق أن جبلة لم يكن أحد رؤساء البدو ، بل كان أحد أمراء الغساسنة المشهورين الذين حكموا فى الشام باسم البيزنطيين ، ويعدّه البعض آخر ملوك الغساسنة (٨) .

---

(١) سورة الأعلى : ١٨ - ١٩ .
(٢) سورة النجم : ٣٦ - ٣٨ .
(٣) سورة مريم : ٤١ .
(٤) سيرة النبى محمد ص ٢٦٠ - ٢٦٣ .
(٥) تاريخ الطبرى جـ ٢ ص ٤٣١ وما بعدها .
(٦) سيرة ابن هشام جـ ٢ ، ص ٢٥٥ - ٢٥٦ . وقارن بما فى تاريخ الطبرى جـ ٢ ص ٤٢٢ - ٤٢٣ .
(٧) سيرة النبى محمد ص ٣٤٠ .
(٨) المختصر فى أخبار البشر لأبى الفداء جـ ١ ص ٧٣ .

وتتحدث المؤلفة عن أخ لعثمان بن عفان من الرضاعة ، اسمه « عبد اللّه بن سعيد » (١) . والواضح أنها تقصد عبد اللّه بن سعد بن أبى سَرْح ؛ فهو « أخو عثمان ابن عفان من الرضاعة ؛ أرضعت أمُّه عثمان » (٢) .

ومما يلفت النظر أن المؤلفة تشير إلى « فترة شديدة القصر فى حوالى عام ٧٠٠م حينما مُنِعَ أهل الديانات الأخرى من اعتناق الإسلام » (٣) . وعام ٧٠٠م يتفق تقريبًا مع عام ٨١ هـ وكان الخليفة حينذاك عبد الملك بن مروان ، وبالرجوع إلى تلك الفترة فى مصادرنا التاريخية لا نجد ما يفيد أن أهل الديانات الأخرى مُنِعوا خلالها من اعتناق الإسلام . والذى حدث أنه فى حوالى ذلك الوقت أخذ بعض الولاة يفرضون الجزية على من أسلم حتى لا تتأثر موارد بيت المال ، إلى أن جاء الخليفة عمر ابن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١ هـ / ٧١٧ - ٧٢٠م) فأبطل ذلك وقال كلمته المشهورة : « إن اللّه - جل ثناؤه - بعث محمدًا ﷺ داعيًا إلى الإسلام ولم يبعثه جابيًا » (٤) .

ب - ونأتى الآن إلى القسم الثانى من ملاحظاتنا ، وهو المتعلق بمدى صحة بعض الآراء التى تتبناها المؤلفة .

يندرج تحت ذلك ما تذكره من أن محمدًا ﷺ فى بداية حياته فى المدينة لم يكن قد أصبح رأس هذه الأمة ، وكانت منزلته بالغة التواضع ؛ فقد كانت أقل كثيرًا من منزلة رؤساء المدينة - مثل سعد بن معاذ وعبد اللّه بن أبى . واتساقًا مع هذه النظرة تقول عند حديثها عن غزوة بدر إن محمدًا لم يكن حينذاك القائد الحربى للأمة لذا لم يكن في وسعه إقرار أفضل الوسائل لمعالجة تلك الأزمة الطارئة دون التشاور مع الرؤساء الآخرين . ومع أن المؤلفة تذكر أن مكانة الرسول فى المدينة تصاعدت بعد انتصاره فى بدر فإنها تشير إلى أن هناك من الأنصار من لم يكن متحمسًا لتصاعد هذه المكانة . وفى نفس هذا الإطار تذكر أن محمدًا - حتى طرد بنى قينقاع من المدينة - لم يكن يُنْظَر إليه باعتباره

(١) سيرة النبى محمد ص ٣٦٢ .
(٢) أسد الغابة لابن الأثير جـ ٣ ص ٢٥٩ .
(٣) سيرة النبى محمد ص ٣٨٤ .
(٤) الخراج لأبى يوسف ص ١٣١ .

رئيسًا للأمة ، وقد احتاج إلى مساعدة عبادة بن الصامت لاحتواء خطر بنى قينقاع وابن أبى (١) .

ولا نشك فى أن هذه الآراء فى حاجة إلى مراجعة . ويكفى أن نذكر هنا - باختصار - بعض الحقائق التاريخية التى تصلح أساسًا لمثل هذه المراجعة . وأول هذه الحقائق أن بيعتى العقبة الأولى والثانية قد تضمنت كلتاهما بندًا صريحًا ينص على وجوب الطاعة للرسول ﷺ (٢) . ولا نتصور إقرارًا من الأنصار والمسلمين جميعًا بالتزامهم بطاعة الرسول دون أن يكون ذلك مصحوبًا بإقرارهم بمبدأ قيادته للأمة . وثانى هذه الحقائق أن صحيفة المدينة - وقد كتبها الرسول ﷺ بعد هجرته بقليل قد أبرزت بوضوح مكانة الرسول القيادية حين أشارت إلى « أنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يُخاف فسادُه فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله » (٣) . وثالث هذه الحقائق أنه لم يُعرف أن المسلمين فى صدر العهد المدنى نافسوا الرسول فى القيادة أو خرجوا على طاعته . وهذا ما تقرره المؤلفة نفسها حين تروى ما قاله سعد بن معاذ للرسول ﷺ فى غزوة بدر : « قد آمنّا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا ، على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا ذلك البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ... » (٤) . وقد كان موقف سعد بن معاذ معبرًا عن موقف الأنصار جميعًا . وهذا لا ينفى أن المنافقين لم يكونوا راضين عن مكانة الرسول ﷺ وقيادته ، وقد عبروا عن عدم رضاهم بصور مختلفة ، ولكن موقفهم هذا انسحب على العصر المدنى كله تقريبًا لا على بدايته فقط .

لا مجال - إذن - للقول بأن منزلة الرسول في بداية حياته فى المدينة كانت

---

(١) سيرة النبى محمد ص ٢٣٤ ، ٢٦١ ، ٢٧٣ ، ٢٧٨ .
(٢) تاريخ الطبرى جـ ٢ ، ص ٣٥٦ ، ٣٦٣ ، وسيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٦٣ .
(٣) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ١٢٢ - ١٢٣ .
(٤) آرمسترونغ : سيرة النبى محمد ص ٢٦١ ، وانظر أيضًا : تاريخ الطبرى جـ ٢ ص ٤٣٥ .

أقل من منزلة رجال من أمثال سعد بن معاذ وعبد اللّه بن أبى وغيرهما . ولا نستطيع أن نستنتج أن مشاورته لكبار الأنصار فى بدر كانت تعنى أنه لم يكن القائد الحربى للأمة ؛ ذلك أن الشورى مبدأ راسخ من مبادئ الإسلام لم يحد الرسول عنه حتى عندما كان فى أوج قوته السياسية فى النصف الثاني من العصر المدنى .

ومن بين الآراء التى نختلف فيها مع المؤلفة قولها بأن المهاجرين وجدوا الغزو وسيلة عملية لكسب لقمة العيش ؛ فلم يكونوا على دراية بالزراعة كالأنصار فى المدينة ، ولم يكونوا كلهم مثل عبد الرحمن بن عوف فى حذقه بالتجارة ؛ ولذا كان الهجوم على قوافل المكيين التجارية وسيلة جاهزة لكسب الرزق حتى لا يصبحوا عالة على الأنصار (١) . والملاحظ أن « آرمسترونج » تكاد تتفق هنا مع ما يردده المستشرق البريطاني « مونتجومرى وات » فى هذا الشأن (٢) .

والحق أن المؤلفة نفسها ذكرت فى مواضع أخرى من كتابها ما ينقض هذا الرأى وقد أشرنا فيما مضى إلى ردها على الذين يتهمون الإسلام بالعدوانية وكان من بين ما قالته في هذا السياق أن حروب الرسول كانت ضرورية وأن الحرب من المنظور الإسلامي أمر بغيض ولا يحق للمسلمين أن يبدأوا بالعداوة ؛ لأن الحرب العادلة هى التى تشن للدفاع عن النفس (٣) . فكيف تتسق هذه الآراء المنصفة مع القول بأن المهاجرين وجدوا الغزو وسيلة عملية لكسب لقمة العيش ؟ على أن ما نود أن نؤكده هنا أن مهاجمة المهاجرين لقوافل المكيين التجارية لم تكن هى الطريقة المثلى أمامهم لكسب العيش ؛ فقد كانت طريقة باهظة التكاليف محفوفة بالمخاطر غير مضمونة النتائج . وحتى لو سلمنا بأن المهاجرين كانوا لا يعرفون الزراعة ولا يحذقون التجارة

---

(١) سيرة النبى محمد ص ٢٥٤ - ٢٥٥ .

(٢) M . Watt : Muhammad , Prophet and Statesman , p . 104 - 105 .

وارجع أيضًا إلى مقالنا : « قراءة نقدية فى كتابات مونتجومرى وات فى السيرة النبوية » ، وهو منشور فى مجلة المسلم المعاصر ، العدد ٨٢ ص ١١٦ وما بعدها .

(٣) سيرة النبى محمد ص ٢٥٢ - ٢٥٣ ، ٣١٠ .

فإننا لا نستطيع أن نسلّم بأن تعلّم مثل هذه الأنشطة وإتقانها كان أمرًا بالغ الصعوبة بالنسبة لهم ، بل يمكننا القول إن ذلك كان أيسر كثيرًا من تحمُّل مشاقّ الغزو . هذه الغارات - إذن - لم تكن غايتها الأساسية كسب لقمة العيش ؛ بل كانت ردًّا على الظلم البيِّن الذى حاق بالمهاجرين حين أخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق ، كما كانت فى الوقت نفسه لونًا من ألوان الحرب الاقتصادية ضد مكة التى كانت التجارة تمثل العمود الفقرى لاقتصادها .

ثم إننا نختلف مع المؤلفة أيضًا فيما ذهبت إليه من أن الحجاب قُصد به فى البداية نساء النبى وأن نساء المسلمين فعلن ذلك بعد وفاة النبي بثلاثة أو أربعة أجيال . وقد ذكرت المؤلفة فى البداية ما يفيد أنها تقصد بالحجاب أن يعزل النساء أنفسهن فى جزء منفصل من المنزل ، ولكنها عادت بعد قليل لتذكر ما مؤداه أن المقصود بالحجاب هو ارتداء الملابس التي تحجب من المرأة ما لا يصح كشفه أمام الرجال (١) . وهنا ينبغى أن نؤكد أن تعاليم الإسلام لا تفرق بين نساء النبى وبين غيرهن من النساء المسلمات فى هذا الشأن ، وذلك يتضح من قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ... ﴾ (٢) ، وقوله سبحانه : ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ... ﴾ (٣) .

وهناك مسألة أخرى خطيرة نعتقد أن المؤلفة خانها فيها الاستنتاج الصحيح وهى إنكارها أن محمدًا ﷺ « كان يرى أن الإسلام دين عالمى وأنه سوف يلغى ما أنزل على أهل الكتاب » . وهى من أجل ذلك تنكر أن الرسول بعث بكتب إلى إمبراطورى بيزنطة وفارس وإلى النجاشى ملك الحبشة وإلى المقوقس عظيم القبط فى مصر يدعوهم إلى الدخول فى الإسلام ؛ وتستند فى هذا الإنكار إلى أن هذه الرواية لم توردها أقدم المصادر ؛ ولهذا تقول : « نكاد نقطع بأن هذه الرواية مدسوسة » ، ثم تذكر أن المسلمين استمروا « إلى ما بعد وفاة نبيهم بنحو مائة عام يعتبرون أن الإسلام

---

(١) نفس المرجع ص ٢٩٥ .

(٢) سورة الأحزاب : ٥٩ .

(٣) سورة النور : ٣١ .

دين منزل على العرب وحسب » (١) .

أما أن الإسلام دين عالمى فهذه حقيقة أثبتها القرآن الكريم منذ نزوله فى مكة . فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (٢) ، وقوله عز وجل : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (٣) ولكن عالمية الإسلام لا تعنى أنه يلغى ما أنزل على أهل الكتاب ؛ ذلك أن القرآن نزل ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ (٤) . والمعروف أن عالمية الإسلام ترتبط من الناحية العملية بإرسال الرسول كتبًا إلى ملوك العالم وأمرائه يدعوهم فيها إلى الإسلام ، وعلى رأس هؤلاء إمبراطور بيزنطة وإمبراطور فارس وملك الحبشة والمقوقس عظيم القبط فى مصر . ولا يمكننا أن نوافق المؤلفة على إنكارها لهذه الكتب بحجة أن أقدم المصادر لم توردها ؛ فالحق أن أقدم المصادر أوردتها ، ويأتى على رأسها صحيح البخاري وطائفة غيره من المصادر التاريخية الموثقة (٥) . أما ما ذكرته المؤلفة من أن المسلمين ظلوا حوالى مائة عام بعد وفاة نبيهم وهم يرون أن الإسلام دين منزل على العرب فحسب ، فإن المناقشة التى أوردناها الآن تعد ردًا على ذلك ؛ هذا فضلًا عن أن « آرمسترونج » لا تقدم دليلًا على ما تقول . والملاحظ أن إنكارها لعالمية الدعوة الإسلامية رأى يشاركها فيه العديد من المستشرقين (٦) .

وقد ذهبت المؤلفة أيضًا إلى رأى آخر لا نتفق معها فيه ، ويبدو فيه تأثرها بـ « مونتجومرى وات » (٧) ، وهو أن محمدًا ﷺ كان يعتبر أن الأمة ضرب من

---

(١) سيرة النبي محمد ص ٣١٤ .
(٢) سورة سبأ : ٢٨ .
(٣) سورة الفرقان : ١ .
(٤) سورة المائدة : ٤٨ .
(٥) انظر على سبيل المثال : صحيح البخاري جـ ٤ ، ص ٥٧ وما بعدها ؛ وتاريخ اليعقوبى جـ ٢ ص ٧٧- ٧٨ ؛ وتاريخ الطبرى جـ ٢ ص ٦٤٨ وما بعدها ؛ والكامل لابن الأثير جـ ٢ ص ٢١٢ وما بعدها .
(٦) See for emple , van Grunebaum , classical islam , p . 42, J . Glubb, the Great Arab conquests , p . 89 f ., S. Runicman , History of the crusades , vol . i , p , 13 . وللمزيد من التفاصيل ارجع إلى كتابنا : المسلمون والروم فى عصر النبوة (دار الفكر العربى ١٩٩٧) ص ٧٢ - ٨٣ .
(٧) M . Watt , Muhammad at Medina , p . 308 .
وارجع أيضًا إلى مقال : قراءة نقدية فى كتابات مونتجومرى وات فى السيرة النبوية ، المرجع السابق ص ١٢٨ وما بعدها .

القبيلة الكبرى ، ومن ثم استمر فى تطبيق الأساليب القديمة للحفاظ على النظام . وهى ترى أن تطبيق الحدود ومبدأ العين بالعين والسنّ بالسنّ انعكاس للروح القبلية . ورغم أنها ترى أن اللجوء إلى ذلك فى صدر الإسلام كان ضروريًا لحفظ النظام العام ؛ نظرًا لتأثر المجتمع بالأخلاق القبلية ، فإنها تعرب عن أسفها لأن بعض المجتمعات الإسلامية الحديثة ما زالت تطبق هذه العقوبات القديمة (١) .

لا حاجة بنا إلى أن نؤكد كثيرًا أن الإسلام ما جاء ليحيى التقاليد القبلية ويستلهم روحها بل ليرسى أساسًا جديدًا فى المجتمع يقوم على روابط العقيدة ، وقد استنكر القرآن الكريم محاولة إحياء التقاليد القبلية أو الروح الجاهلية : ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ؟ ﴾ (٢) ، كما ألح الرسول ﷺ كثيرًا على تذكير أصحابه بأن الروح الإسلامية تتصادم مع الروح القبلية الجاهلية ، وقد قال لبعض أصحابه عندما أوشك أن يثور بينهم نزاع قبلى : « ما بال دعوى أهل الجاهلية ؟ ! » ، ثم قال : « دعوها فإنها خبيثة » (٣) . وتتكرر أمثال هذه التحذيرات فى الأحاديث النبوية (٤) . على أن المثال الذى جاءت به المؤلفة ، وهو تطبيق الحدود ومبدأ العين بالعين والسنّ بالسنّ ، لا يمثل استمرارًا فى تطبيق الأساليب القديمة ولا انعكاسًا للروح القبلية ، وإنما يمثل العقاب العادل . إن الروح الجاهلية لا تكتفى بالحصول على الحق بل تتجاوزه إلى البغى وأخذ ما ليس بحق . ولا يخفى أن مبدأ العين بالعين والسنّ بالسن إلى آخره هو تطبيق لما جاء فى التوراة : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾ (٥) ؛ وليس له صلة بالتقاليد القبلية . وتجدر الإشارة هنا إلى أن الحديث عن العقوبات الإسلامية لا ينبغى أن يتم بمعزل عن السياق العام الذى تقع فيه والضمانات التى تحيط بها . وهذه العقوبات – عندما تطبّق التطبيق الصحيح – ليس لها من هدف إلا حماية المجتمع وتحقيق أمنه الكامل .

---

(١) سيرة النبى محمد ص ٣٣٧ - ٣٣٨ .

(٢) سورة المائدة : ٥٠ .

(٣) صحيح البخاري جـ ٤ ص ٢٢٣ .

(٤) من ذلك قوله عليه السلام : « ليس منا من ضرب الخدود ، وشقّ الجيوب ، ودعا بدعوى الجاهلية » . نفس المصدر والصفحة .

(٥) سورة المائدة : ٤٥ .

وأخيرًا نأتي إلى مناقشة رأى تطرحه المؤلفة ، وقد سبقها إليه بعض المستشرقين (١) ، وخلاصته أن الرسول ﷺ اتجه فى أخريات حياته إلى غزو القبائل العربية الشمالية (الواقعة على طريق الشام) حتى يستغل طاقات المسلمين القتالية ويصرف أنظارهم عن أن يحارب بعضهم بعضًا . ولا تستبعد المؤلفة ، عند حديثها في هذا السياق عن غزوة تبوك ، أن يكون الرسول قد بدأ بهذه الغزوة فعلًا فى التخطيط لغزو سوريا وفلسطين (٢) .

والحق أن مثل هذه الآراء هى أقرب إلى الافتراضات التى تفتقر إلى البرهان التاريخى الملموس . وليس من منهج الإسلام - كما اعترفت المؤلفة نفسها قبل ذلك - أن تُستغل طاقات المسلمين القتالية فى حروب عدوانية ؛ لأن مبدأ العدوان مرفوض فى الإسلام . ثم إنه من الغريب حقًا أن يشجع الرسول المسلمين على الدخول فى حرب لا تهدف إلى دفع الأذى أو تأمين الدولة الإسلامية استنادًا إلى أن المسلمين إن لم ينشغلوا بحرب الغير فمن المحتمل أن ينشغلوا بحرب النفس . أما غزوة تبوك فمن المعروف أن الرسول أخذ الأهبة لها فى أحرج الظروف وذلك بعد أن بلغته الأنباء أن الروم يستعدون للهجوم على المدينة . ثم عندما تبين له عدم صحة هذه الأنباء لم يُتم غزوه وعاد إلى المدينة . فهذه - إذن - غزوة أملتها الضرورة وكان الهدف الأساسى من ورائها صد هجوم متوقع ، ولا نستطيع بحال أن نستشف منها وجود مخطط إسلامى لغزو سوريا وفلسطين (٣) . والواقع أن الظروف التى غزا المسلمون فيها بلاد الشام بعد ذلك كانت تختلف كثيرًا عن هذه الظروف وكان للغزو مبرراته الدفاعية القوية ، ولكن هذا موضوع آخر .

* * *

(١) see for example : j . Glubb , the life and times of Muhammad , p . 367 .,C. Brockelmann , History of the islamic peoples , p . 34 .

(٢) آرمسترونج : سيرة النبى محمد ص ٣٦٥ - ٣٦٧ .

(٣) للمزيد من التفاصيل ارجع إلى : د . عبد الرحمن سالم . المسلمون والروم فى عصر النبوة (دار الفكر العربى . القاهرة : ١٩٩٧) ص ١١٤ - ١١٦ .

لا يسعنا فى نهاية حديثنا عن كتاب « كارين آرمسترونج » إلا أن نؤكد أن هذا الكتاب - رغم ملاحظاتنا النقدية على بعض ما به من آراء - يمثل منعطفًا أساسيًا فى تاريخ الدراسات الاستشراقية عن سيرة النبى محمد ﷺ . إنه كتاب حاولت فيه مؤلفته - بجد وإخلاص - أن تصحح كثيرًا من الصور المشوَّهة التى توارثها الغربيون عن نبى الإسلام وأكسبها تقادم العهد مصداقية لديهم تجعلها فوق التشكيك أو المناقشة . لقد اقتحمت المؤلفة هذه المناطق « الحصينة » بشجاعة ، وقدمت فى معظم الأحيان رؤية موضوعية لا تعتمد على مخزون الكراهية بل على حقائق التاريخ . صحيح أن هناك قضايا قدمت فيها المؤلفة وجهات نظر قد يختلف معها الكثيرون حولها ، ولكن ذلك قد يعكس اجتهادًا خاصًا منها ، والاجتهاد قابل للصواب والخطأ ؛ وربما يعكس أيضًا تأثرًا غير إرادى بما يحيط بالكتّاب من مؤثرات ثقافية . وأيا ما كان الأمر فإن الباحثين المسلمين لا يتطلعون إلى أن يكتب الباحثون الغربيون كتبًا عن الإسلام ونبيّ الإسلام تعكس وجهة النظر الإسلامية تمامًا ، فهذا مستحيل ؛ بل إن كل ما يتطلعون إليه هو أن يحاول الغربيون فى كتاباتهم عن الإسلام أن يتجردوا من الهوى والغرض ، وأن يطرحوا موروث العداء التاريخى جانبًا ، وأن يجعلوا الموضوعية رائدهم فيما يكتبون حتى لو اختلفت وجهات نظرهم كثيرًا أو قليلًا عما نقدمه نحن . وهذا ما نزعم أن « كارين آرمسترونج » حاولت جاهدة أن تحققه في هذا الكتاب ونجحت فى ذلك إلى حد كبير .

قائمة المصادر والمراجع

(ا) عربية :

ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن على بن محمد) :
- أسد الغابة فى معرفة الصحابة . دار الشعب . القاهرة : ١٩٧٠ م .
- الكامل فى التاريخ . دار صادر . بيروت : ١٩٧٩ - ١٩٨٢ .

البخاري (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل) :
- صحيح البخارى . دار الشعب . القاهرة (بدون تاريخ) .

البلاذرى (أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر) :
- أنساب الأشراف . جـ ١ . تحقيق الدكتور محمد حميد الله . دار المعارف . القاهرة : ١٩٨٧ م .

الزمخشرى (أبو القاسم محمود بن عمر) :
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل . دار الريان للتراث . القاهرة : ١٩٨٧ م .

الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير) :
- تاريخ الرسل والملوك (الشهير بتاريخ الطبرى) . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . دار المعارف . القاهرة : ١٩٧٩ م .

أبو الفدا (الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل) :
- المختصر فى أخبار البشر . المطبعة الحسينية المصرية القاهرة : ١٣٢٥ هـ .

ابن هشام (أبو محمد عبد الملك) :
- سيرة النبى ﷺ (الشهيرة بسيرة ابن هشام) . تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد . دار الهداية . القاهرة (بدون تاريخ) .

اليعقوبى (أحمد بن أبى يعقوب) :
- تاريخ اليعقوبى . دار صادر . بيروت : ١٩٩٢ م .

أبو يوسف (يعقوب بن إبراهيم) :
- كتاب الخراج . دار المعرفة . بيروت (بدون تاريخ) .

(ب) اجنبية :

Brockelmann (v .) :
- History of the Islamic Peoples . london , 1980 .

Glubb (J.B .) :
- The Great Arab Conquests . london , 1963 .
- The life and times of Muhammad . New york , 1979 .

Ostrogorsky (G .) :
- History of the Byzantine state . Oxford , 1988 .

Runciman (S .) :
- History of the crusades . penguin books , middlesex , 1986 .

Von Grunebaum (G . E .) :
- Classical islam : A History 600 - 1258 . london , 1970 .

Watt (W . M .) :
- Muhammad at Medina . Oxford , 1956 .
- Muhammad : Prophet and Statesman . Oxford , 1961 .